

العَوْدُ إلى بني أُمّي

عن سجن زحلة وسُجون أُخْرى...

شهادة سجين سابق
دَوَّنها
حسن الساحلي

ifa Institut für Auslandsbeziehungen
Auswärtiges Amt
umam للتوثيق والأبحاث Documentation & Research
الدفتر الثّالث

شهادة سجين سابق
دَوَّنها
حسن الساحلي

العَوْدُ إلى بني أُمّي

عن سجن زحلة وسُجون أُخْرى...







منتدى المشرق والمغرب للشّؤون السجنيَّة
[مشروع بتوقيع **أمم للتوثيق والأبحاث**]
دفاتر المُنْتَدى [٣]
بيروت، ٢٠٢٠/٢٠١٩
هاتف: ٥٥٣٦٠٤ ١ ٩٦١ +
صندوق بريد: ٢٥ ـ ٥ الغبيري، بيروت ـ لبنان
مُراجعة وتدقيق: صلاح الـچيلاني



MENA PRISON FORUM
مُنتدى المشرق والمغرب للشّؤون السّجنيَّة

www.umam-dr.org | www.menaprisonforum.org



إنَّ الآراءَ الـوارِدَةَ فـي هـذه المَطْبوعَـةِ التـي كان إنْجازُهـا ونَشْـرُها بِدَعْـمٍ مِـنْ «مَعْهَـدِ العَلاقـاتِ الثَّقافيَّـةِ الخارِجِيَّـة (ifa)» ــــ (المُمَوَّلِ مِـنْ وِزارَةِ الخارجيَّـةِ الألمانيَّـة) ــــ إنَّ هـذه الآراءَ تُعَبِّـرُ، حَصْـرًا، عَـنْ وُجْهَـةِ صاحِبِهـا وناشِـرِها، وعَلَيْـهِ فهـي لا تُلْـزِمُ، بـأيٍّ شَـكْلٍ مِـنَ الأشْـكالِ، المَعْهَـدَ، ولا تَعْكِـسُ، بالضَّـرورةِ، مُقارَبَتَـهُ المُؤَسَّـساتيَّةَ مِـنَ المَسـائِلِ مَوْضـوعِ البَحْـثِ والـرَّأْي.

على سبيل التقديم

العَوْدُ إلى بَني أُمِّي

هــذا الدَّفْتَــرُ، الثَّالِــثُ مِــنْ دَفاتِــر مُنْتَــدى المَشْــرِقِ والمَغْــرِبِ للشُّــؤونِ السِّـجْنِيَّة،[١] يَدِيـنُ لاثْنَيْـن: لِـ«فُـلان» ــ «السَّجينِ السَّـابِقِ» الـذي آثَـرَ التَّكَتُّـمَ علـى اسْـمِه، وَلِحَسَـن السَّـاحِلي[٢] الـذي ائْتَمَنَـهُ فُـلانٌ علـى تَجْرِبَتِـهِ، بِمـا فيهـا الفَصْـلُ السِّـجْنِيُّ منهـا، وَعَهِـدَ إلَيْـهِ أنْ يُدَوِّنَهـا نِيابَـةً عَنْـه...

الدَّيْـنُ مُـزْدَوَجٌ، إذًا، ولكِـنَّ الشَّـهادَةَ، وهـي مـا يَعْنينـا فـي هـذا المَقـامِ، واحِـدَةٌ لا تُمَيِّـزُ بَيْـنَ صاحِـبِ السِّـجْنِ وصاحِـبِ الرِّوايَـة. كَذلِـكَ، لا يَظْلِـمُ القـارِئُ أيًّـا مِـنَ الاثْنَيْـنِ إنِ انْصَـرَفَ إلـى مُطالَعَـةِ هـذِهِ الشَّـهادَةِ لا مُلْقِيًـا بـالًا إلـى شَـيْءٍ سِـوى مـا تَقُصُّـهُ مِـنْ سـيرَةِ فُـلانٍ، وهـيَ سـيرَةٌ يَجْـري عَلَيْهـا وَصْـفُ «السِّـجْنِيَّةِ» ــ لا بِلِحـاظِ مـا يَتَخَلَّلُهـا مِـنْ أسـابيعَ وَراءَ قُضْبـانِ سِـجْنِ زحلـة، (شَـرْق لبنـان)، فَحَسْـبُ، وَإنَّمـا بِلِحـاظِ مـا تَنْفَتِـحُ عَلَيْـهِ، ومـا تُخْتَتَـمُ بِـهِ، مِـنْ تَعَـذُّرِ الحُرِّيَّـةِ، أحْيانًـا، حتَّـى فـي الهَـواءِ الطَّلْـق.

بالطَّبـعِ، لهـذِهِ الشَّـهادَةِ أنْ تُطالَـعَ أيضًـا بِوَصْفِهـا، فـي مَواضِـعَ مِنْهـا، «ألْبـومُ

(١) وهـيَ سِلْسِـلَةُ كُتُـبٍ وَكُتَيِّبـاتٍ، لا دَوْرِيَّـةَ مُنْتَظِمَـةٌ لهـا، مَدارُهـا علـى المَسْـأَلَةِ السِّـجْنِيَّةِ فـي أبْعادِهــا الشَّــخْصِيَّةِ والعامَّــة.

(٢) كاتب وصحفي لبناني متخصص بالفنون البصرية والصوتية.

صُـوَرٍ»، بِرَسْـمِ التَّصَفُّـحِ، عَـنْ سِـجْنِ زحلـة، ونُزَلائِـهِ، ومـا بَيْـنَ السِّـجْنِ وَجِـوارِهِ، وَتَفاصيـلَ أُخْـرى، وهــيَ، بهــذا المَعْنَــى، مُســاهَمَةٌ فــي «الأَدَبِ السِّــجْنِيِّ اللُّبْنانِــيِّ» بالمَعْنــى الواسِــعِ لِلْكَلِمَــة.(٣)

وإذْ هِـيَ كذلـكَ، فهـذِهِ الشَّـهادَةُ، أيْضًـا وأيْضًـا، نَـصٌّ حَقُّـهُ أنْ يُقْـرَأَ تَحْـتَ هـذا العُنْـوان... فَشُـكْرًا لمـن كَتَـبَ، وَشُـكْرًا لِمَـنْ حَـرَّرَ، حتَّـى باتَـتْ هـذِهِ «الرِّوايَـةُ» مَشـاعًا يَأْتيـهِ القـارِئُ والقارِئَـةُ مِـنْ حَيْـثُ يَـشاؤون!

مُنْتدى المَشْرِق والمَغْرِب للشُّؤون السِّجْنيَّة

(٣) رغـم أن لبنـان، قياسًـا بجيرانـه، لا يَأتـي فـي صـدارة المشـهد السـجني، فـإن هـذا «التَّخَلُّفَ» لا يعنــي غيــاب «المســألة الســجنية» عــن ماضــي لبنــان وحاضــره، ولا بالأولــى أنَّــهُ لا أدبَ سِــجْنِيًّا لبنانــي.

بَـــرَاءَةٌ في الــوَحْـــل

خـلال طفولتـي المبكـرة أُصِبْـتُ بالرَّبْــو؛ لـذا لـم أعْــتَدْ علـى الخـروج كثيـرًا مِـن بيتنـا الواقـع فـي إحـدى بلـدات منطقـة بعلبـك ـ الهرمـل.[1] لـم يُعَوِّضنـي أخواتـي الفتيـات الثـلاث عـن وَحْدَتـي تلـك. كان عالمـي محصـورًا فـي أماكـنَ شـديدة النظافـة لا يدخلهـا الغُبـار ـــ بيتنـا وبيـوت أقاربنـا التـي تثـق أمـي بنظافتهـا وحسـب.

حتـى بعـد شـفائي فـي عمـر السـابعة لـم يَتَغَيَّـر الأمـرُ كثيـرًا، حـاول أبـي أن يُنْــقِذ انطوائيَّتـي التـي بـدأت تتكـون رغمًـا عنـي، فهـو يرانـي لـم أُصـادق أحـدًا ولـم ألعـب سـوى منفـردًا. الكلمـةُ العُليـا كانـت لأمـي، فـآلت كثـرة الشّـجار إلـى ابتعـادِ أبـي رويـدًا رويـدًا عـن المنزل، وإلـى انحصـارِ دوره فـي الإعانـة الماديـة فقـط.

لا أعْلَـمُ كيـف بـدأ الأمـر... فأنـا أصغـر إخوتـي... لـم أفهـم قَـطُّ متـى بـدأتْ تعاسـة أمـي... لكنّهـا مُشَـخَّصَةٌ طِـبِّـيًّا بمـرض الوسـواس القهـري، وكثيـرًا مـا تَطَـوَّرَ الحـالُ بهـا لتدخـل فـي نوبـات اكتئـابٍ شـديدة. ولأنَّ مرضهـا كان مُزمِنًـا فقـد اعتدنـا علـى كثـرة ذهابهـا للمستشـفى.

---

(١) هي المنطقة الواقعة شمال شرق لبنان.

أُمٌّ مريضــةٌ بالقلــق... وطفــلٌ مُصــابٌ بالربــو... وأَبٌ يُحــاول إخــراج ابنـه مِـن قـوقعة أُمِّــه، كان مُـدركًا لمرضـي ولكنـه كان صاحـب فطـرةٍ هادئـة؛ كان يقـول لهـا: ذلـك القبـر لـن يشـفي ولدنـا، أُتركيـه يلهـو مـع الأطفـال!

أحيانًـا أُحَمِّـلُ نفسـي ومَرَضـي ذَنْـبَ اشـتداد حِـدَّة القلـق عنـد أمـي. وكثيـرةٌ هـي الليالـي التـي أمْضَتْهـا جالسـةً علـى الصّـوفـا حتـى الفجـر، لا تفعـل شـيئًا سـوى التفكيـر بالاحتمـالات السـيئة التـي قـد تحـدث لأحـد أقربائهـا. تتصـل بخالـي مثـلًا بعـد منتصـف الليـل، لأنهـا سـمعتْ إطـلاقَ نـارٍ فـي البلـدة، وخافـت أنْ يكـون قريبًـا مِـن منزلـه الـذي يقـع قـرب أحيـاء المطلوبيـن. أو تُبقينـا فـي غُـرَفٍ معينـة مـن المنـزل وتمنعنـا مـن المـرور قـرب الشـبابيك بسـبب الاشـتباكات بيـن العشـائر.

خوفهـا مــن الخــارج العنيـف فــي منطقتنـا، ضَيَّـقَ عالمـي وَحَصَـرَهُ أكثـر وأكثـر ضمـن مسـاحةٍ صغيـرةٍ قـرب بيتنـا. وقـد حَرِصَـتْ علـى تخويفـي مـن عُنْـفِ وشـرِّ أولاد العشـائر الذيـن يعيشـون علـى مقربـةٍ خلـف منزلنـا، حيـث الصغـار فـي مثـل سـني يلعبـون كـرة القـدم علـى الطريـق.

وكمـا أظـنُّ، لـم يكـن خوفهـا محصـورًا مِـنْ خشـونة لعبهـم، بـل أيضًـا مـن تعرضـي للتحـرش مـن الأولاد الأكبـر سـنًّا؛ ولعلـه الخـوف الـذي كان يحسـم الجـدال مـع أبـي، لتبـرر لـه لوائـح المنـع الكثيـرة التـي كانـت تصدرهـا تجاهنـا.

ورغـم عـدم اندماجـي معهـم إلا أنـي لَـمْ أَسْـلَمْ مِـن بعـض المُضايقـات، منهـا ذكـرى محفـورة فـي رأسـي، تُشـعرني بالأسـى كلمـا تذكرتهـا. ذلـك الهلـع الـذي تملكنـي وأنـا أركـض خائفًـا مِـن ولـدٍ منهـم يُلاحقنـي، وفـي يـده حجـر يهددنـي بضربـه. لا أنسـى ذلـك الموقـف، ليـس لخوفـي

مـن الحجـر... بـل لأنـي كنـت أخشـى أن يرانـي أحـد وأنـا أركـض مـن ولـدٍ أصغـر منـي بسـنوات وحجمـي ضعـف حجمـه! تملكنـي شـعورٌ أنَّ أبـي كان بالجـوار وراقـب ذلـك المشـهد المُخْـزي مُتَحَسِّـرًا علـى رَجُلِـهِ الوحيـد!

لمـا كبـرتُ قليـلا لـم يجـد أبـي بُـدًّا مـن التدخـل، فصـار يأخذنـي معـه إلـى الصيـد. رغـم ذلـك، حيـن أسـتعيد ذكريـات تلـك الرحـلات، يغزونـي نفـس شـعور الخـوف الـذي كان ينتابنـي وأنـا تائِـهٌ فـي الأحـراش أُحـاول إيجـاده. كان هلعـي يتنامـى كلمـا مَـرَّ وقـت أكثـر بدونـه وأصيـر أحيانـا أطلـق أعيـرةً ناريَّـة مـن بندقيتـي الصغيـرة (١٢ رفيـع)، علّـه يعـرف بأنـي أبحـث عنـه. كنـت أجلـس كـأُمِّي... أتخيـل سـيناريوهات قضائـي الليـل وحيـدًا وتحولـي، ربمـا، إلـى وجبـة لإحـدى الحيوانـات.

مؤخـرًا، عندمـا أخبرتـه بذلـك، تفاجـأتُ بـه يقـول إنـه كان يَتَعَمَّـد تَـرْكِي كذلـك ولكـن دون أنْ أغيـب عـن ناظِرَيـه! تلـك كانـت طريقتـه لأعتمـد علـى نفسـي وأواجـه الخـوف... لأتعلـم كيـف سـتكون الحيـاة فـي الحقيقـة عندمـا أكبـر!

أمـا عـن مدرسـتي، فقـد كانـت خـارج البلـدة، مـا قطـع الطريـق أمـام تكويـن أي صداقـات مـع أبنـاء البلـدة أو اندماجـي مـع واقعهـا.

لـم يكـن لـي أصدقـاء سـوى ابـن عمـي الـذي يـقطن بالجـوار، وابـن خالـي الـذي يقطـن علـى مشـارف البلـدة حيـث تكـثر بيـوت عشـيرة أمـي. وكان هـو مصـدري الوحيـد للتعـرف علـى تلـك العشـيرة، وعنـده سُـمح لـي باللعـب فـي الشـارع كأيِّ صبـيٍّ طبيعـيّ.

تعرفـتُ علـى بقيـة الرفـاق الصغـار، وسـويًّا سـوف نَشُـبُّ وننضـج. كل مِنَّـا قـد اكتسـب شـخصيته التـي سـيكبر عليهـا بالفعـل، ولـن تختلـف

أدوارنـا كثيـرًا إلّا بتحـول اللعـب إلـى جِـدّ. لـم أشـعر بالألفـة معهـم، لكـن لـم أسـتطع الابتعـاد عنهـم...

لـم أفقـد الغربـة بينهـم، لكـن لـم أكـن أخـاف منهـم كغيرهـم... فَهُـم فـي النهايـة عشـيرتي! لكنـي قَـطّ لـم أكـن مُنْفَتِحًـا مثلهـم، بـل لـم أكـن أسـتطيع إخفـاء قَرَفِـي مـن روائـح منازلهـم الكريهـة بالنسـبة لـي، والعشـوائية فـي ترتيـب حاجاتهـم وملابسـهم المُتَّسِـخَة، فضـلًا عـن تَـقَزُّزي مـن طعامهـم إذا حـدث ودعيـت إليـه... إنهـا عُـقْدَةُ أمـي القديمـة!

أصدقـاء الطفولـة أمـس هـم ذاتُهـم تُجّـار الحشـيش اليـوم! لكـن كأنَّهـم نسـوا صداقتنـا القديمـة أو قرابـة النسـب، فمـا إنْ أتأخَّـر فـي دفـع المـال يتحولـون بسـرعةٍ معـي، بـل يُهَدِّدونـي أحيانًـا بِكَيْـتَ وكَيْـتَ... ممـا لا أُحِـبُّ تَذَكُّـرَه... يـبدو أنهـم تـغيَّروا قـليلا!

مـع أنّ دَوري لـم يتغيـر فـي شِلَّـتهم، فالصغيـر الـذي كان ضعيفًـا أمـام شراسـتهم قديمًـا، هـو نَفْسُـهُ الـذي صـاروا يَسْـتَقوون عليـه اليـوم، ويَسْـتَخْرِجونَ منـه، بالتهديـد إنْ لَـزِمَ الأمْـرُ والوعيـد، أمـوال أهلـه... كـدخيلٍ لا يسـتحق الانتسـاب لتلـك العشـيرة المُـتَجَـبِّـرَة!

في التِّيه

بعد انتقالنا إلى بيروت، ألحقني أهلي بمدرسةٍ إنجيلية قريبة من منزلنا المستأجر في منطقة الحازمية.[1] شكّل هذا الانتقال تَحَوُّلًا لي إذ فقدتُ على إثره كل العلاقات التي كُنْتُ نجحتُ في تكوينها أخيرًا.

طالما ركنتُ إلى راحة الإلحاد طول حياتي، ولم يكن لي ارتباط بأي شعائر تَخُصُّ دينًا أو مَذْهبًا ما، لكن يبدو أني مُقَيَّدٌ في السجلات الحكومية بعكس ذلك، فقد اكتشفتُ في مدرستي الجديدة أني «شيعي»... وفي بلدي يُحشر المرء في خانة ديانته ومذهبه حَشْرًا لا يستطيع التَّمَلُّصَ منه.

وعلى إثر ذلك، تعرضتُ لمواقف طائفيةٍ بامتياز، دون فعل مُسبقٍ مِني. لذا، بمرور الوقت، صِرتُ في هذا المحيط الجديد كالمَسْخِ المتملص من مرجعيته؛ وعند بعض الناس أنْ تكون طائِفِيًّا خير مِن أن تكون لا شيء!

ولِكَم السخرية الذي لقيته بسبب لهجتي ــ حتى كِدت أن أُسَمَّى

(١) حَيٌّ سَكَنِيٌّ إلى الشَّرْقِ من بَيْروت.

«الريفـي ابـن بعلبـك»... غَيَّـرْتُ لهجتـي تدريجيًّـا وجعلتهـا أكثـر «بياضًـا» لأخـرج مـن الصـورة النمطيـة المنطبعـة فـي أذهانهـم عـن مـدى تخلـف العشـائر وتأخرهـم. ومـن العجـب أنـي كنـتُ أُعتبـر «مُتَمَدِّنًـا» فـي مدرسـتي القديمـة فـي بعلبـك، كشـخصٍ يُخالـف هيئـة أقرانـه بثيابـه المميـزة وسـلوكه.

فـي مدرسـتي الجديـدة، عرفـتُ زيـاد رحبانـي. كانـت البدايـة حيـن سـمعت أحدهـم يُدَنْـدِنُ بأغنيـةٍ لـه... جذبتنـي الكلمـاتُ التـي تَجَسَّـدَتْ برسـم خيـال شـابٍّ يافـعٍ مثلـي، ولحنهـا المألـوف. رجعـتُ لأُختـي القريبـة مـن سِـني، وتعرفنـا عليـه أكثـر سـويًّا، حتّـى صِرْنـا نحفـظ جُمَـلًا كاملـةً مـن مسـرحياته وَنُرَدِّدهـا بصـوت عـال فـي المنـزل.

نشـأتْ صداقـة بينـي وبيـن مايـكل الـذي كانَ مـن المُغْرَميـن بزيـاد أيضًـا. كان مايـكل مَـلاذي الفنـي وسـط كَـمٍّ كبيـر مـن الغَمْـزِ واللمـز ضـدي. أدْخَلْنـا زيـاد الرحبانـي فـي كلامنـا حتـى بالنـكات، صرنـا نـتبارى فـي حفـظ أغانيـه ومسـرحياته، وانضـم إلينـا آخـرون، وأخريـات.

وشـيئًا فشـيئًا اطـرد اندماجـي فـي جَـوِّ المحيطيـن بـي. لا أنكـر مـا كان لمايـكل بسـبب مـن شـخصيته القويـة ومـن ثقـة الآخريـن بـه فـي تسـهيل هـذا الاندمـاج وفـي انتقـال شـيء مـن الثقـة بالنفـس إلـيَّ، علـى أن هـذا كلَّـه لـم يخلّصنـي تمامًـا مـن خجلـي وتحفظـي الفِطْرِيَّيـن. إلـى أن طرقنـا بـاب الحشـيش سـويًّا وأحببنـاه سـويًّا!

عَمَّـق الحشـيش صداقتنـا بالشـلة وزادت معـه ثـقـتي بنفسـي، ولـو تكلمنـا بواقعيـة فلـم يكـن أنـا مـن تعـززتْ ثـقته بـل ذاك الهائـم تحـت تأثيـر الحشـيش.

ذلـك مـا دفعنـي إلـى اسـتخدامه كوسـيلةٍ للتقـرب إليهـم وتحصيـل إعجابهـم، فكنـتُ المتكـفل بالإتيـان بـه مِـن مصـادره التـي أعرفهـا جيدًا.

ووجـدتُ كـم أنَّ هـذه المـادة قـادرة علـى أن تكـون وسـيلة للتجـاذب بيـن النـاس، حتـى بيـن أشـخاص لا يربطهـم الكثيـر ببعضهـم البعـض.

رغـم ذلـك، لـم أعـد أعـرف مَـنْ منهـم صديقـي حَــقًّا ومَـن يريـد مرافــقتي لمَجّانيــة الحشـيش.

لمّـا وعيـتُ سياسـة تبـادل المصالـح بيننـا تلـك، تعلمـتُ كيـف أسـتغل هـذا الصنـف مـن الزمـلاء، ولـم أحـاول قـط التخــفيف مـن حـدة هـذا النمـط مـن التعامـل. وجدتنـي أفعـل ذلـك مُتَعَجِّبًـا مـن نفسـي، فلسـت ذاك الشـخص الخجـول الـذي يعطـي لا لشـيء إلا للاعتـراف بوجـوده فقـط.

تشـعبنا فـي الكليـات المختلفـة بعـد وصولنـا للمرحلـة الجامعيـة ــ منهـم مَـنْ ذَهَـبَ لدراسـة إدارة الأعمـال وبعضهـم لعلـوم التكنولوجيـا وفريـق آخـر سـافر خـارج لبنـان.

اتجهـت أنـا إلـى الهندسـة المعماريـة. بعيـدًا عـن تخصصـات بقيـة الشـلة، لكـن يبقـى الـود القديـم الـذي يجمـع كل مجموعـة فتيـان التقـوا حـول مائـدة صغيـرة ليلفـوا سـجائرهم ويُخَصِّـبوها بالحشـيش!

فـي يـوم منحـوس، أوْقَـفَ دَرَكِـيٌّ أحـد أفـراد شـلتنا فـي طريـق بعـد منتصـف الليـل وبحوزتـه قطعـة حشـيش ليسـت بالقليلـة. بعـد أيـام مِـن توقيفـه فوجئنـا باتصـال مـن مخــفر حبيـش بثلاثـة مِنـا للتحقيـق. قـررت عـدم الذهـاب... حتـى يتَّضِحَ لـي مـا سـيكون عليـه موقـف الآخريـن.

وبالفعـل حصـل مـا كنـت خائفًـا منـه: قـال أحدهـم خـلال الاسـتجواب أنـي مَـن أعطيتـه مـرة سـيجارة حشـيش، وتذاكـى آخـر فـقال عنـي: لـم يكـن هـو المُعْطـي، ولكنـا كنـا نُدخـن سـويًّا!

هُـــرمــــــــون!

فـي ذهـولٍ، كأنّـي تحـت تأثيـر الحشـيش، ألصقنـي الشُـرَطي بالحائـط، لـم أكـن أَعْبـأ حيـن طلـب مِنِّـي خلـع ثيابـي سـوى بالحالـة التـي سـيظهر عليهـا عُضْـوي! ليـس بإرادتـي أنْ يَنْصَـبَّ تركيـزي فـي هـذا الموقـف علـى هـذا الجـزء مـن جسـدي خصوصًـا، ولعلـه بسـبب كلام صديقتـي التـي تركتُهـا للتـو، فقـد كانـت تَشْـرَحُ لـي ونحـن ننفـث دخـان السـيجارة فـي وجـوه بَعْضِنـا عـن علاقـة إفـراز الأدرينالـين بتَشَـنُّجِ عضـلات الجسـم. فهمـت الآن مـا لـم أفهمـه حينهـا!

لـذا وقفـتُ بطريقـةٍ لا تُظهرنـي مُواجِهًـا لهـم؛ حتـى جعلنـي ذلـك الخبيـث الدَّرَكِـي أُقَـرْفِص، ليتأكـد أنـي لا أخبـئ شـيئًا. خِفْـتُ أن يكون أحـدٌ مِـن السـجناء العامليـن فـي المـكان قـد انتبـه لتلـك الهيئـة التـي حاوَلْـتُ إخفاءهـا، وأن يتحـول الأمـر لِـنُكتةٍ يتناقلونهـا، ولربمـا وصـل لأسـماع أولئـك الذيـن سأتشـاطر معهـم الزنزانـة لاحقًـا. ضـاع جهـدي هـبـاءً!

فـلِعِلْمِي بذلـك المصيـر الـذي قـد أؤول إليـه... وهـو بقائـي فـي السـجن لأيـام، بـادرت لأسـابيع خلـت، إلـى إطـلاق شـعر رأسـي لَعَـلَّ هـذه الكتلـة مـن الشـعر تـواري بعضًـا مـن الملامِـح الطفوليـة التـي اتَّسـمتُ بهـا، والتـي لا تُناسـب المُعَـدَّلات المرتفعـة مـن هرمـون

التستوستيرون، على حد قول صديقتي، الموجودة بين نزلاء السجن؛ ولكن زاد الطِّين بِلَّة حين أمَرَ الشُّرَطي بإزالة شعر رأسي ولحيتي تمامًا. حاولتُ أن أرشي زميلي الحلاق الجديد... ليخففها فقط، لكنه لم يقبل. انكشف وجهي طفوليًّا وبريئًا، وخسرتُ خَطَّ دفاعٍ كنت أُعَوِّل عليه لخَلْقِ صورةٍ لنفسي أكثر صلابةً خلال أيام سجني الأولى.

تَمَلَّكَنِي الخوف مِن شيءٍ آخر أيضًا، هو احتمال ملاحظتهم قِلَّة شَعر صدري وظهري... وقد أكملتُ إزالتهم قبل فترةٍ وجيزة.

وحيث إنَّ كثرة الشَّعر في جِسم الرجل أمارةٌ على فاعلية هُرمون الذكورة لديه، كما قالتْ لي صديقتي يومًا، لا بُدَّ سيطرحون تساؤلاتٍ حول هويتي الجنسية ومدى رجولتي!

لا أذكر أين سمعتُ تلك المقولة «الإنسان وَلِيد بيئته»...

فأنا لم أكن بِدعًا حين فعلتُ ذلك، كان السبب أصدقائي الذين لقيتهم في بيروت... بعد أنِ انتقلتُ مِن مَدرستي الأولى، فقد سخروا من شكل الشعر على كتفي وصدري، والذي يُشْبِهُ الزَّغَب؛ لذلك لم أتردد في إزالته كما يفعلون.

بالطبع كنت أترك القليل حتى لا أثير حَفِيظة أهل بلدتي. أصدقائي الجُدُد لهم عادات وسلوكيات مختلفة عن أصدقائي القدامى الذين لم يكونوا ليتقبلوا شيئًا كهذا.

وَدَدْتُ أن أبدو أكثر صلابةً مما ظهرتُ عليه في لحظاتي الأولى في السجن، لكنَّ وقوفي عاريًا أمامهم وما تلاه... أخار مِن عَزْمي، لأواجه هشاشتي وضعفي. بقيَ لي أنْ أُعَوِّل على طولي وضخامة جُثَّتي... فكرتُ أنهما سيُعْطِيَانِ انطباعًا عني بالقوة ـــ طبعًا شَرْط

أن أحافـظ علـى عبوسـي وجِدِّيَّــتي، وتجنـب ارتـداء نظَّارتـي التـي ستجعلني كـطالبٍ جامعـيٍّ مُسـتكين.

كان مأمـور السـجن يعلـم بقدومـي؛ فأثنـاء تَوْقِيفـي فـي مركـز مكافحـة المخـدرات، اتصلـتْ أختـي فـي زحلـة بأحـد رجـال الأمـن النافذيـن، ليضمــن عــدم تعرضــي لمضايقــاتٍ وقــت مُكُوثــي فــي الســجن. حـاول المأمـور اسـتغلال الموقـف لأُخْبِـرَهُ بـمُـوَزِّعِي المخـدرات فـي المنطقـة... مُقابـل أن أبقـى عنـده حتـى تُحـلّ قضيتـي.

لـم آبـه لكلامـه؛ فقـد كنـتُ أعـرف أنَّ العشـيرة التـي تنتمـي إليهـا أُمِّـي هـي الأكثـر حضـورًا فـي السـجون، بسـبب انخراطهـا الواسـع فـي تجـارة المخـدرات، وركَــنْتُ إلـى يقيـن أنهـا سـتَضْمن لـي الحمايـة، بمـا أنَّ الجميـع يهابهـا لمـا اشْـتُهِرَ عـن أبنائهـا مِـن كثـرة مشـاكلهم وعنفهـم دون رادع. وكنـت بالفعـل قـد تعرفـتُ علـى بعضهـم فتـرة مراهــقتي، عــن طريــق ابــن خالــي الــذي وضعنــي علــى طريقهــم لشـراء الحشـيش بـادئ الأمـر، ثـم جَذَبَـتْــني قصصهـم ومغامراتهـم التــي تذكرنــي بأفـلام المافيـا.

بالنسـبة لهـذه العائلـة، يعتبـر السـجن جـزءًا طبيعيًّـا مِـن دَوْرَةِ حيـاة أيّ شـخصٍ فيهـا... فتجـارة المخـدرات وزراعتهـا عمـلٌ مُتَـوَارث وتقليـد لا يشـوبه تـردد. لذلـك لا يتعـرض السـجين بعـد خروجـه إلـى مَعَــرَّةٍ أو نَـبْــذٍ مــن مُحيطـه الاجتماعـي، كمـا يحصـل مـع أبنـاء العائـلات الأخـرى والتـي ينتمـي أبــي إلـى إحداهـا.

مِثَـالِـيَّةٌ مَـهْـتُـوكَـة!

أتـى أحـد شـباب العائلـة وأخذنـي معـه. كان أسـمر اللـون، يرتـدي شـورط سـباحة وقميصًـا مُزَرْكَشًـا، وبتسـريحة شـعر الفتيـان؛ لكـنَّ كل ذلـك لـم يُخَفِّـف مِـن قَسْـوَةِ وجهـه وملامحـه الإجراميـة.

سـألني عـن الفَـخْذِ الـذي تنتمـي لـه أُمِّـي وعـن أسـماء أخوالـي. كان يعـرف واحـدًا منهـم وتربطـه صداقـة بأحـد أبنائـه. استـفسر أيضًـا عـن سـبب وجـودي فـي السـجن، لـم أكـن أعـرف بمـاذا أجيـب؛ فتهمتـي قانونـيًّا هـي «تجـارة المخـدرات» بينمـا تهمتـي في الواقـع تُـقْـتَصَرُ على إعطائـي أحـد الأشـخاص سـيجارة حشـيش ليـس إلا، لكنـي تغيَّـبْتُ عـن جلسـة محاكمتـي... مـا خـوّل لهـم إصـدار مذكـرة توقيفـي تحـت الخانـة القُصـوى مِـن جرائـم المخـدرات.

طُلِبَ مِـنِّـي الجلوس على أحد الأسِرَّة الفارغة في الزنزانة كي أرتاح...

كان هنـاك شـاب يجلـس علـى السـرير بمواجـهتي يُـفَـلْـفِـش بهاتــفه لا مُبَالِـيًا. لـم أعرفـه فـي البدايـة بسـبب لحيتـه، لكـن عندما سـمعتُ صوته اتضحـت لـي هويتـه، كان معـي فـي نفـس المدرسـة التـي ارتَـدْتُـها حتـى الصـف التاسـع خـارج البلـدة. دائمًـا مـا كان غريـب الأطـوار وعشـوائي التصرفـات.

المفارقـة أنَّ صداقـةً جمعتنــي بـه فـي المدرسـة بعـد أن ضربنــي مجموعـة مـن الصبيـان الذيـن كانـوا أكبـر مِنـي سِـنًّا، ويسـكنون فـي نفـس حـي المدرسـة. وهـو الوحيـد الـذي كان فـي صفـي مـن بلدتـي. والمُضْحِـكُ أنـه بـدأ بالتَّنَمُّـرِ علـيَّ هـو أيضًـا بعـد عـدة أشـهر، وصـرتُ خائــفًا منـه أكثـر مِـن خوفـي منهـم.

عـزز خوفـي منـه نمـط سـلوكياته الانتـقامية والتخريبيـة فـي المدرسـة؛ أذكـر مـرةً أنـه قـام بتمزيـق كرسِـيّ الناظـر شـخصيًّا، بخنجـرٍ أتـى بـه مـن منزلـه. وأخـرى فوجـئ الجميـع بصـورةٍ رسـمها علـى حائـط الصـف، وكانـت لفتـاةٍ ناضجـةٍ يسـيل الـدم علـى فخذيهـا. وبالنسـبة لتلاميـذَ فـي الصـف السـادس... تملكتنـا الدهشـة الممزوجـة بالرعـب ممـا أثارتـه فينـا عشـوائية رسـمه وفـقاعة لـون الـدم؛ ولكنـه لـم يلبـث أنْ طُـرد مـن المدرسـة بعـد تلـك الحادثـة.

هـذا هـو عـلاء... بعـد كل تلـك السـنين يجلس أمامـي في مــفارقةٍ أخرى أعجـب. بالنسـبة لــموازين أبنـاء عشـيرة أمــي، يمثـل عـلاء النمـوذج المثالـي لمـا ينبغـي أنْ تَمُـرَّ بـه حيـاة أفرادهـا، بدايـةً باصطدامهـم مـع الحيـاة المتحضـرة فـي البلـدة، إلـى عملهـم فـي المخـدرات.

متنقليـن بيـن الجـرود التـي وُلـدوا فيهـا وبيـن بلـدات البقـاع الشـمالي، وبيــن بيـروت؛ بيـروت التـي سـرعان مـا تُحـدد مصيرهـم، إمـا بنبذهـا لهـم فيعـودوا فارِّيـن إلـى جــرود أهلهـم، وإمـا سـجناء يُعيـدون خلـق مجتمعاتهـم بأشـكالٍ جديـدة.

تـرك عـلاء المدرسـة ليعمـل فـي زراعـة الحشـيش، حيـث بـدأ يــبيعه في المنطقـة والجـوار مـع أولاد عمـه. كان هـذا قبـل أن يُفتـح لـه مجـال أَرحـب بيـن طـلاب جامعـة سـيدة اللوزيـة الأغنيـاء، حيـث ضاعفـوا لـه الأمـوال التـي كان يجنيهـا مـن البقـاع.

اسـتغلَّ وقـت أنْ كان الأمـن الداخلـي لا يُـفتش النسـاء، لينقـل الكوكاييـن والحشـيش إلـى بيـروت فـي ثيـاب فـتاةٍ مـن أقاربـه. مـع توسـع أعمالـه انتـقل للعيـش فـي حـي النبـع البيروتـي، فَيَتَيَسَّـر لـه أن يُلَبّـي سـريعًا رغبـات أفـراد الشِّـلَّـة الأغنيـاء فـي بــرمانا.

خـلال سـنتين صـدر بحقّـه عـدد مـن مذكّـرات التوقيـف، واضطـر للعـودة إلـى البلـدة مُرغَمًـا. وكآخريـن مـن عائلتـه، قـام بنقـل منزلـه إلـى «حـي المطلوبيـن» القابـع علـى تَـلَّـةٍ مرتفعـةٍ مُطِلَّـةٍ علـى البلـدة، يسـتطيع منهـا رؤيـة جميـع الطرقـات الرئيسـية المؤديـة إليهـا. لكـن لـم يمـض الكثيـر حتـى استـفاق علـى صـوتِ جنـودٍ يدخلـون الحـي، حـاول الفِـرار مـن الجهـة الخلفيـة لمنزلـه... إلا أنـه لفـت الأنظـار فلاحقـوه حتـى تعـثَّر فكُسـرتْ قدمـه. بعـد دقائـق فهـم أنـه لـم يكـن المقصـود، وإنمـا أتـوا للقبـض علـى شـخصٍ آخـر. ولكـن الأوان قـد فـات.

حيـن قدمـتُ السـجن، كان عـلاء يقضـي سـنته الثانيـة. فهمـتُ منـه أنـه لـم تعـد تُشـغله حياتـه بالخـارج كمـا كان الحـال فـي البدايـة. حـاول أنْ ينقـل إلـيَّ تلـك اللامبـالاة والعَدَمِيَّـة التـي تـنتابه، ليؤكـد لـي أنَّ هـذا مـا سأشـعر بـه مـع مـرور وقـت السـجن البطـيء. كثـرة كلامـه هـذا أثـارت هلعـي... ونجـح فـي أذِيَّـتي نفسـيًّا. لـم أكـن قـادرًا علـى فَصلـه عـن ماضيـه، خاصَّـةً أنَّ سـلوكياته بقيـتْ معـي متناقضـة، فـحينًا يُعاملنـي كصديـقٍ مُـقَـرَّب، وحينًـا يسـخر مِنـي. مُصاهرتـه للشَّـاويش لـم تجعـل لـه أيّ رادعٍ لمـا يفعلـه، وخصوصًـا مـع الـزُّوَّار الجُـدُد.

وبســبب سـلوكياته هـذه المسـتبيحة معنويًّـا للزنزانـة، كان يخافـه المسـاجين بشـكلٍ عـام. لكـن عِوَضًـا عـن سـعادتي كونـي أعرفـه منـذ الصغـر، مـا كان يجعلنـي فـي الظاهـر أحتمـي بـه، كان يتناقـص

شـعوري بذلـك حيـن أكـون جالسًـا معـه، بـل يتملكنـي الخـوف مِـن أن أصبـح بـأيٍّ لحظـةٍ واحـدًا مِـن المسـاجين الذيـن يَـتَـنَـمَّر عليهـم!

هذا هو النموذج المثالي للعشـيرة!

تُــرْبَــةٌ بُــور!

الغرفـة مسـتطيلة الشـكل، تزدحـم بحوالـي ٢٥ شـخصًا، ثمانيـة فقـط مَـنْ ينامـون علـى الأسِـرَّة، والباقـي يفترشـون الأرض. معظـم السـجناء مِـن بلدتـي مـا عـدا خمسـة مِـن مناطـق مختلفـة، وليـس بمسـتغربٍ طبعًـا أن يكـون نصـف العـدد مِـن عشـيرة أمـــي.

تذكـرتُ أنـي أعـرف الشـاب الـذي رافقنـي مِـن مكتـب المأمـور إلـى الزنزانـة، فاسـمه يُـلازم كل مشـكلةٍ جسـيمةٍ تحـدث فـي أنحـاء البلـدة، و«المشـكل عنـده مثـل شـربة المـي» كمـا تـقول والدتـي. وكذلـك أخـوه المسـجون معنـا صاحـب الصيـت الـذي لا يقـل سـوءًا عنـه. هـذا الصيـت جعلهمـا يتبـوّآن المكانـة المُهابـة فـي السـجن، حتى صـار يُطـلق عليهما «الشّاويـــش والعَرِّيف».

دخـل «الشّـاويش» السـجن بعـد إدانتـه بجريمـة قـتل، إثر اشـتباكٍ حصل بينـه وبيـن أفـراد عشـيرةٍ أُخـرى، وقـد مضـى مِـن حُكمـه سـت سـنوات فــقط، والبقيـة تأتي.

أمـا «العَرِّيـف» فقـد دخـل مؤخرًا... ولكـن بطريقةٍ أكثـر مَهانة، إذ سلَّمَــتْه عائلتـه حَــقْنًا للدمـاء، إثـر مقتـل شـابٍّ في اشـتباكٍ مـع عشـيرةٍ أخرى عن طريـق الخطـأ، وهـو يُؤمِّـل أن يخـرج فـي حـال تمَّـتْ مُصالحـة بينهما.

ومـع ذلـك كان العَرِّيـف أكثـر إثـارةً للخـوف بالنسـبة لـي، فقـد كان الـذِّراع التنفيـذي لأخيـه فـي الغرفـة، ولـم يكـن يتوانـى عـن التصـرف بحقـارةٍ مطلقـة مـع المسـاجين الآخريـن. أمـا أنـا فـكان يَخُصُّـني بنصائحـه مـن وقـتٍ لآخـر علـى سـبيلٍ مُريـب، كأن ينهانـي أن أتحـدث مـع أفـراد العائـلات الأخـرى، أو أنْ أحلـق لِحْيَتـي، أو أرتـدي نظارتـي، ومِـن المُحَرَّمـات أن أشـتري أيّ شـيءٍ مِـن أحـد غيـره. بالإضافـة إلـى مـا كان يسـتدرجه مـن أموالـي مُقابـل إطعامـي، وأحيانًـا مقابـل مسـاحةٍ أزيد علـى الأرض للنـوم المريـح.

لـم يَمْسَسْـني بسـوءٍ ظاهـرًا ولكنـه بَطَّـن لـي التهديـد إن خرجـتُ عـن طاعتـه. وكذلـك أصبحـتُ تحـت سـطوته نفسـيًّا وماديًّـا!

رغـم انقطاعـي عـن بلدتـي منـذ أكثـر مـن عشـر سـنوات، لـم أقطـع تواصلـي مـع المقربيـن مـن عائلتـي. ولـم أفقـد شغـفي بتَصَيُّـدِ أي خبـر يَمُـتُّ لأولئـك البلطجيـة مِـن عشـيرة أمـي.

لا أُنكـر أنـي دائمًـا كنـت أُعجـب بهـم فـي بدايـة شَـبابي، وقـد شـكَّلوا جـزءًا مِـن شـخصيتي، سـلبيًّا وليـس إيجابيًّـا، دون أنْ أحتـكَّ بهـم أو أعمـل عملهـم، ولكـن بمجـرد سـماع قصصهـم التـي كانـت تشـبه بالنسـبة لـي حكايـات أبطـال السـينما...

مَــنْــبُــوذٌ وإنْ كَـــان..

لـم أتـأقــلم قَــطّ مـع المسجونين معـي في نفـس الغرفـة، كنت متيــقنًا مِـن بُغضهـم لـي وتوجسـهم منـي؛ لـذا لـم يُــفَوِّتوا فرصـةً لإذلالـي خفية، دون أنْ يتركـوا أثـرًا يُسـاءَلون بـه.

ليــس لــي أن أسـتغرب هــذا أو أحــاول إصلاحــه ولــو قليــلا، فمــع أنَّ غالبيتهـم مِـن أقـارب أمـي، إلا أنهـم بقَــدْرٍ بشـعٍ يبغضـون عائلـة أبـي، فهـي مع صِغَـرِ تمددهـا فـي البلـدة، تُـعتبر صاحبـة امتيـازاتٍ سياسـيةٍ كبيـرة، وقـد اسـتفادت مـن صعـود نــفوذ «حـزب اللـه» فـي البقـاع الشـمالي خـلال العقـود الماضيـة، لـتُـثبت وجودهـا... ضد ظلم العشـائر الطويـل.

بينمـا هـم فـي عِـداد المُهَــمَّشين جَـرّاءَ مخالفتهـم للقانـون وأعمالهم في الممنوعـات، تَنْعَـم عائلـة أبـي بالشـرعية التـي يُـأمنها الغطـاء السياسـي مـع وظائفهـم فـي الدولـة.

زاد ســخطهم لمــا رأوا السـرعة فـي تحديـد جــلسة مُسـاءلتي خـلال العطلـة القضائيـة، بينمـا يضطـرون هـم للانتظـار لــفتراتٍ طويلـةٍ دون محاكمــات.

فمـع شِـدَّةِ المِـراس التـي يبـدون عليهـا.. إلا أنهـم لَشَـدَّ مـا يكتئبـون

ويُضمـرون الغضـب إذا مَـرَّتْ مِـن أمـام أعينهـم امتيـازات ليـس لهـم فيهـا رَجَـاء!

كان لذلـك أثـره علـى أرض الواقـع؛ فبعـد سـنواتٍ مِـن بِـناء أبـي وصهـري بيتًـا كبيـرًا فـي جـرود بعلبـك ـ الهرمـل، فوجـئوا باقتحامـه مِـن أشـخاصٍ مجهوليـن، سـرقوا وخربـوا مـا امتـاز بـه المنـزل مِـن ديكـوراتٍ وأثـاثٍ لـم يعتـادوا علـى مثلـه، فبيوتهـم لـم تُـفرش إلا بأثـاثٍ متواضـع لُـزوم النـوم والجلـوس فحسـب. وتكـرر ذلـك الحـادث مـع آخريـن مـن أفـراد عائـلات البلدة الأصليِّــين.

بَـرَّرَ لـي أبـي يومهـا مـا حـدث بـأن السـكان لـم يعتـادوا أن يُــقيم أحـدٌ بيتـه أعلـى تلـك الأراضـي المرتفعـة، خاصـةً إذا ظهـر المنـزل بمظهـر المتعالـي علـى أصحـاب البيـوت المنحـدرة المتــقشفة فـي الأسـفل هنـاك!

وأنـا فـي السـجن تذكَّـرتُ تبريـر أبـي الـذي لـم يعـد مقنعًـا كثيـرًا. صـار اقــتحامهم وتخريبهـم بالنسـبة لـي رسـالةً موجهـة ضِدنـا بشـكلٍ مباشـر، وسـيكون هنالـك مثلهـا فـي المسـتقبل. كمـا أنـه لا يُمكـن فصلهـا عـن السـياق السياسـي والاجتماعـي لعلاقـة العشـائر بعائـلات البلـدة الأكثـر تحضـرًا. وهــي علامـةٌ علـى حِــقدٍ قديـم ورغبـةٍ بـالأذى لـن أسـتغرب إن حصـل مثلهـا معـي فـي السـجن، بعـد تَـكَـثُّــفِ تلـك الأحقـاد فـي رؤوسـهم.

كان لجغرافيـا الزنزانـة بُعْـدٌ اجتماعِـيٌّ... أو بالأحـرى طبقــيٌّ؛ عـزز تلـك الكراهيـة أكثـر، فلسـان حالهـم أنهـم اسـتراحوا مـن العائـلات صاحبـة النفـوذ فـي الخـارج، فلـم يبـق إلا مشـاركتهم لنـا فـي الزنزانـة!

فقـد كانـت الغرفـة مُقَسَّـمَةً إلـى ثلاثـة أقسـام افــتراضية. المدخـل مـن ناحيـة البـاب: ينـام فيـه الشـاويش والعريـف وبطانتهـم وأصحـاب

مائدتهـم، وهـي بمثابـة الديـوان الـذي يسـتقبل فيـه الضيـوف الجُـدد أيضـا!

تَمَيَّـز المدخـل بهـواءٍ نظيـف إلـى حـدٍّ كبيـر بسـبب قُربـه مـن البـاب، وبمراوحـه الكثيـرة وإطلالـةٍ علـى تـلفازٍ فـي غرفـة الحـارس القريبـة.

ثـم وسـط الغرفـة حيـث يوجـد النسـبة الأكبـر مـن السـجناء غيـر المحسـوبين مـن جهـةٍ مـا علـى الشـاويش ولا يأكلـون علـى مائدتـه، لكـن يمكـن أن يكونـوا مِـن أبنـاء العشـيرة.

أمـا المُؤخـرة! كمـا كانـوا يدعونهـا: فهـي الأقـرب إلـى الحمـام ومـكان تنظيـف الصحـون. وكلمـا اقـتربتَ إلـى المؤخـرة يعنـي أنَّ احتمـال خروجـك مـن الزنزانـة أصبـح أقـرب زمنيًّـا، أو أنَّ مرتبتك ضمن المسـاجين أصبحـت أدنـى، كمـا هـو الحـال مـع الخـادم والطبـاخ.

وبمـا أنـي انتقلـت للنـوم فـي المدخـل الأعلـى مـن الزنزانـة... لأنـي صِـرت محسـوبًا علـى الشـاويش وآكل علـى سـفرته، دَفَـعْتُ بـلا قصـدٍ منّـي المسـاجين الذيـن كانـوا فـي الوسـط... نحـو الحمّـام!

بَيْضاء في الأصْل

خِـــــذلان

ربمـا حالـة «الخـادم» كانـت الأسـوأ بامتيـاز. كان سُـورِيًّا مـن منطـقةٍ قريبـةٍ مـن الجـولان. يعمـل مـن الصبـاح حتـى منتصـف الليل دون توقـفٍ مقابـل دخانـه وطعامـه فقـط!

أخبرنـي أنـه سُـجِنَ لـسرقته هاتـفًا محمـولًا، ورغـم أنـه قَـرَّر إعادتـه لصاحبـه بعـد تأنيـب ضميـره، إلا أنَّ الأخيـر غَـدر بـه وسَـلَّمه للـدَّرَكي.

لـم يكـن يعـرف أحـدًا فـي لبنـان ولا يملـك أيَّ نقـود ليعيـش بهـا. هيئـته كانـت تُـثير الأسـى، خاصـةً أنـي لـم أكـن أراه يرتـاح سـوى آخـر الليـل.

أمـا عملـه فـكان التنظيـف وغسـل الأطبـاق ومسـح الأرض عـدة مـرات خـلال النهـار، بالإضافـة لغسـل ثياب الشـاويش وجماعتـه. ربمـا كان العمل الأقسـى مـن كل ذلـك، حمـل أغـراض الشـاويش وجماعتـه مـن الدُّكّـانة فـي الطابـق السـفلي إلـى الغرفـة، وكانـت تضـم غالونـات الميـاه وأشـوال الحبـوب الضخمـة والمعلبـات التـي كانـت تُوضـع جميعهـا تحـت الأسِـرَّة وعلـى الرفـوف، بالإضافـة إلـى اللحـوم والأطعمـة المجمـدة التـي كانـت تُحفـظ فـي الثلاجـات الموجـودة فـي الزنزانـة.

رغـم أنـه ليـس مثلـي... لبنانيـا، مـن منطقـة بعلبـك ـ الهرمـل، ومـن أبنـاء العشـائر... إلا أنـه شـابهني فـي قِلَّـة الحيلـة! وخـذلان المصيـر!

الطبـاخ هـو الآخـر يُستـغلُّ، لكـن بِقَـدْرٍ يحسـده عليـه الخـادم. أبـو علي. وظيفتـه يوميًّـا إطعـام أكثـر مِـن نصـف السـجناء، ثـلاث وجبـات فـي اليـوم.

لـم أتكلـم معـه أبـدًا بسـبب انشـغاله أغلـب الوقـت، وغضبـه الدائـم لكثـرة الوجبـات التـي عليـه تحضيرهـا، وأكبرهـا مائـدة الشـاويش التـي كنـت أتنـاول الطعـام عليهـا، وتضـم ٧ أشـخاص غيـري.

كان يطبـخ الأكلات اللبنانيـة المعتـادة علـى الغـداء، وجميعهـا يَدْخُلُهـا اللحـم بكميـاتٍ كبيـرة. كمـا كان عليـه تحضيـر ساندويشـات فـي الليـل، وترويقـة لبنانيـة فـي الصبـاح (لبنـة، زعتـر ومكـدوس...)

وبالإضافـة لمجموعـة «الشـاويش»، كان يُطعـم مجموعـةً أخـرى مقابـل علبـة مالبـورو أحمـر، ويسـتلمها عنـه الشـاويش إلـى حيـن!

انْـحِـدَارٌ مُـتَـلَـكِّئ

كانـت أحوالـي مستــقرةً لأسـبوعٍ فقـط بعـد سـجني، حتـى انضـمَّ إلينـا جلال وهـو شـابٌّ مـن عائلـة أمـي، أصلـه كُــرْدِيّ حتـى تَبَنّـاه قريـبٌ لأمـي بعـد أن عمـل فتـرة فـي مقهـاه، ولأمـي فضـلُ إتمـام إجـراءات تَـبَــنِّيه وتجنيسـه ليصيـر مواطنًـا لبنانيًّـا مُنتميًـا بالاسـم لإحـدى أعنـف عشـائر بعلبـك ـ الهرمل.

العجيـب أنَّ جـلال سُـجن بسـبب اشـتراكه فـي الاشـتباك نفسـه الـذي قُــبض علـى العريـف فيـه. لكـنَّ جـلال أتـى مُصابًـا بطلـقٍ نـاري فـي قدمـه، ولا يسـير دون معيـن. أقـحم نفسـه ليَظْهَـرَ ذا شـأنٍ أمـام زملائـه، ومُدافعًـا عـن أحـد زعمـاء العشـيرة، لكـنَّ فَــأْلَه قـد خـاب، أُصيـب ولـم يذكـره أحـد حتّـى وصـل الجيـش.

بعـد أيـامٍ مِـن وصولـه تَلَــقّى جـلال كلامًـا قاسـيًا مـن «العريـف»، يؤنبـه فيـه علـى تدخلـه وإقحـام نفسـه فيمـا لا دخـل لـه فيـه. بعدهـا آثـر جـلال أن ينتقـل إلـى زنزانـة أخـرى بعـد أن شـعر أنَّ وجـوده ليـس مرغوبًـا فيـه، عكس مـا كان يؤمـل ويتوقـع.

بسـبب مـا حـدث مـع جـلال، بلـغ مسـتوى قلــقي أضعـاف مـا كان عليـه أول دخولـي. وصـار أَتْــفَهُ شـيء يحصـل فـي الزنزانـة يُــثير فــزعي، وإعمـال الوسـاوس والكوابيـس فـي رأسـي. تَمَثَّلْـتُ نفسـي مكان جـلال، وحيـدًا منبوذًا

مـن المـكان الـذي قضـى فيـه سـنوات طويلـة. تخوَّفـتُ مثلـه أنْ يتخلـى عني الجميـع وأُصبـح فريسـةً للاضطهـاد بعـد انتهـاء فتـرة استضافـتي، خاصـةً أني بعـد مـرور أسـبوع مِـن دخولـي لـم أعـد متأكـدًّا مـن خروجـي قريبًـا، علـى نقيـض مـا كانـت تــقوله لـي أختـي علـى الهاتـف.

اسـتطاع منطـق الزنزانـة أن يـبتلـعني، ويقنعنـي أن التهمـة التـي دخلـت بهـا سـتبقيني سـنوات فـي السـجن كمـا حصـل مـع مسـاجين آخريـن قبلـي.

مـا هَـدَّأْتُ بـه روعـي سـاعتئذ فـي مقارنتـي بهـم، أن سِـجلّي نظيـف، وتبقـى المسـألة مجـرد تعاطـي للمخـدرات بيــن الأصدقــاء، كمـا أكّـد المحامــي، فضـلًا عـن أنـه قـد مضـى علـى تلـك الحادثـة أكثـر مـن ٥ سـنوات، وللتـو تخرجـتُ مـن الجامعـة. كل ذلـك أقدرنـي قليـلًا علـى دفـع الأرق عنـي!

مـع ذلـك أسـلمتُ نفسـي رغمًـا عنـي لرؤيـة الوجـه الآخـر مـن الحقيقـة. نصبـوا لـيَ المحاكـم وأقنعونـي أنـي سـأبقى، وأنَّ الدولـة لا تُـفَـرِّق بيـن سـيجارة حشـيش وكيلـو كوكاييـن. والدليـل أن الكمائـن دائمًـا تـتشدد مع أي شـخصٍ مـن عائلتهـم، كمـا أنّ قائـد الجيـش قـال بالحـرف فـي مجلـسٍ خـاصّ أن «كل واحـد مـن هـذه العائلـة مطلـوب للدولـة» لكـن حديثـه هـذا قـد أتـى بعـد مقتـل جندييـن مـن الجيـش فـي اشـتباك إثـر دخولـه إلـى مناطـق فـي الجـرود لإلقـاء القبـض علـى واحـد منهـم.

لم تكن تسلية نفسي من كلامهم سهلةً إطلاقًا!

نُــزُوحٌ إلى الـعُــمْــق

لـم أكـن وحـدي المغتـرب عـن محيطـه فـي الزنزانـة، فقـد لاقيـتُ نمـاذج أُخـر شـعروا بالوحـدة مثلـي... مِـن أوزار الطائفيـة حينًـا، ومـن أثـقال الطَّبَــقِيَّة حينًـا!

كان منهـم سـجين مسـيحي طاعـن فـي السـن لـه مـن العمـر ٧٥ عامـا، ولـه فـي الغرفـة ٤ سـنوات مِـن عشـرين حُكـم عليـه بهـم بتهمـة القتـل العمـد.

لـم يكـن بإمكانـه البقـاء فـي غـرف المسـيحيين بسـبب وجـود أقـارب للقتيـل فيهـا، وقـد فُـرض وجـوده علـى المسـاجين الشـيعة مِـن قِبـل مأمـورٍ سـابق، رعايـةً لعمـره، ولا بديـل غيـر ذلـك.

بقـي فـي الغرفـة منـذ ذلـك الحيـن. لكـن المحيطيـن بـه، وليـس مـن بينهـم الشـاويش، لـم يَمَلُّـوا مِـن مضايقتـه... ومِـن أهالـي البلـدة المتعصبيـن دينيًّـا وليـس مـن أبنـاء العشـائر!

رجـلٌ ينتظـر الموت ولا يؤمل أن يعيش خارج السـجن ثانيةً.

ضـاق السـجناء بـه وانغلـق الأفـق أمامـه، حتـى وجدتُـه ينعـزل بمكانـه عـن الآخريـن يسـرح بخيالـه فـي الفـراغ، ثـم لا يلبـث أن

يبدأ حديثًا مع أشباحه بصوتٍ خافت وتعابيرَ مختزلة. لم يكن مختلفا بذلك عن أي مريض بالانفصام.

في زاوية الغرفة، حيث خلق عالمه البديل الذي يهرب من بني الإنسان إليه، يفرغ فيه أحاديثه وتخيلاته ويحقق فيه رغباته المكبوتة من النحيب، وأحيانا الصراخ!

كانت محادثاته لا تمت بصلة إلى عمره وحاله، فمرةً يُواعد... وأخرى يسافر... وثالثةً يقتل!

كان مصدرًا لتسلية المساجين في الغرفة، كمسرحيةٍ تعمل لملء أوقات الفراغ. وفي حال اقتربتُ لأكلمه، كان يتكلم في أي شيء يخطر على باله ثم ينصرف فجأةً لمحدِّثه من العالم الآخر. عدا مرةً أحب هو فيها أن يتكلم، حكى تفاصيل جريمته غير نادمٍ ولا مُشفق، اعترف بكَمِّ الحنق والغيظ الذي اعتراه حينها... ولو أنَّه عاد به الزمن لأفرغ بقية مخزن مسدسه كاملة في رأس الضحية.

قال إنه كان شجارًا مع جاره في شقته بسبب علو الصوت المنبعث من تلفازه في الليل، سحب مسدسه وذهب إليه في نوبة غضب، ارتفع صوتهما مع دَوِيّ تكسير زجاج. هُرِعَ نحو باب الشقة جارٌ مِن الطابق السفلي، أكثر مِن طرق الباب؛ وفي خِضَمِّ الغضب... فقد العجوز السيطرة على نفسه... صوّب المسدس نحو الباب وقتل «الضحية»!

أما النموذج الآخر لبشاعة الوضع الاجتماعي الذي أثقل

الكواهـل فسـجين مِـن «فتـح الإسـلام»[1] كان أميـرًا لـ«المبنـى ب» فـي سـجن روميـة،[2] الـذي ظـل «إمـارة» مسـتقلة يُمنـع الأمـن اللبنانـي مـن دخولهـا لسـنوات.

السـؤال البديهـي طبعًـا هـو مـا الـذي يفعلـه فـي زنزانـة أغلـب مَـن فيهـا شـيعة ومـن بعلبـك ـ الهرمـل؟ والجـواب يُلتمـس عنـد «الشـاويش»، الـذي كان مسـجونًا يومًـا مـا فـي نفـس المبنـى «ب» تحـت حمايـة «الأميـر».

وكان علـى الشـاويش أن يـرد الجميـل، فسـاعده لينتقـل مـن سـجن روميـة التـي أصبـح فيهـا وضـع المسـاجين الإسـلاميين سـيئًا جـدًّا، إلـى سـجن زحلـة[3] التـي كان الوضـع فيهـا أفضـل مـن نـواحٍ كثيـرة. أمكنـه تأميـن الحمايـة لـه بمـا أنـه شـاويش الغرفـة، ويمتلـك الحظـوة بيـن أقاربـه وأتباعـه.

كان سـهلًا تحديـد المعنِـيِّ بالهمـس المنتشـر فـي الغرفـة، اسـتهجانًا مـن وجـود شـخص كهـذا بينهـم، خاصـةً مِـن المسـاجين الذيـن ينتمـون لعائـلات بلدتـي الأصليـة... ولا سـيّما منهـم أولئـك الذيـن يريـدون الإيحـاء بأنهـم مـع حـزب اللـه ويُعارضـون وجـود هـؤلاء الأشـخاص انطلاقًـا مـن اعتبـاراتٍ طائفيـة.

رغـم ذلـك لـم يكـن «الشـاويش» ليردعـه شـيء عـن اسـتكمال مـا

---

(١) فتـح الإسـلام: مجموعـة «إسـلاميَّة» مسـلحة منشـقة عـن «فتـح الانتفاضـة» كان أول ظهورها في شباط ٢٠٠٦ في مخيم نهر البارد للاجئين الفلسطينيين الواقع شمال لبنان. في أيار ٢٠٠٧ اندلعت «حرب» بين المجموعة المذكورة والجيش اللبناني انتهت بالقضاء عليها.

(٢) رومية هو السجن المركزي في لبنان. أمّا «المبنى ب» فَجَناحُ السجنِ الذي كان مُخَصَّصًا لـ«الإسلاميين» والذي تميز خلال فترات طويلة بخروجه عن السَّيْطَرَةِ الأمْنيَّة.

(٣) زحلة: من كبرى مدن محافظة البقاع، وهي مركز القضاء المُسَمّى باسمها.

يفعله، خاصة أنَّ عشيرته لها علاقة سيئة مع حزب الله بشكلٍ عام، ورغم وجود بعض المناصرين للحزب حتى بين تجار المخدرات أنفسهم!

ويُعرف جيدًا أن الحزب يتعاطى بحذر مع كل شيء يتعلق بالعشائر، ويتركهم يتصرفون كما يشاؤون... كأنهم خارج القانون والمنطق الذي تعيش باقي عائلات بعلبك الهرمل تحته.

توقفتُ كثيرًا عند حكاية هذا السجين، فهو لم يتلقَّ التعاليم الدينية بشكلٍ منهجي إلا بعد دخوله السجن، بما أنه لم يكن إسلاميًّا أصلا بل أقرب إلى قَبَضَايات الشوارع.

كان سبب دخوله، إدانته بجريمة قتل حصلتْ خلال اشتباك بين شباب منطقته مع منطقةٍ أخرى في طرابلس. ثم بعد قضائه سنتين في رومية واختلاطه بالسجناء الإسلاميين أصبح عضوًا في منظمة «فتح الإسلام» التي ساعدتْه على الترقي والحصول على حظوة ومكانة عابرة للجماعات والمناطق.

كان وضعه جيدًا من الناحية المادية، وحسبما فهمتُ مِن مساجين آخرين، أنه جمّع ثروةً مِن جمع الخَوّات خلال الفترة التي كان فيها أميرًا لـ«المبنى ب». كما امتلك هاتفًا حديثًا، مع العلم أنَّ سعر الهاتف داخل السجن يبلغ أضعاف سعره في الخارج.

أغلبية وقته كان يمضيه على هذا الهاتف، إما للتواصل أو مشاهدة الخطب الدينية والاستماع للقرآن. كما أنه كان مُدمنًا لمشاهدة مقاطع الفيديو من نوعية «الرومانسية الدينية» حيث يكون في الخلفية مَن يُدندن بالآهات البديلة للموسيقى

المحرمـة بالطبـع، ومحتواهـا عـن مـوت الفجـاءة، أو الحـوادث التـي تُصَـوَّرُ بكاميـرات الشـوارع عـن الطفـل الـذي نجـا بأعجوبـةٍ مـن أمـام القطـار! وربمـا فيديوهـات تصـور كيـف سـتكون نهايـة العالـم!

تلـك النوعيـة التـي تُشـبع مناطـق الطاقـة البديلـة فيـه. فـكان يتأثـر حـد الرهبـة والأنيـن!

بشـكلٍ عـام كانـت علاقتـه غريبـة مـع المـواد البصريـة، فقـد بـدا فخـورًا وهـو يُرِينـي فيديـو تعذيبـه مـع أصدقائـه بعـد القبـض عليهـم فـي روميـة، ولا زلـت حائـرًا مِـن تلـك الخــفة والبهجـة اللتَيـن كان ينظـر بهمـا إلـى نفسـه فـي الشاشـة، كأنـه شـخص آخـر لا علاقـة لـه بـه!

بيضاء في الأصل

أيْـنَ الـمَــفَــرّ؟!

مـع أنــي كنـتُ واعيًـا لوجـودي فــي سـجن زحلــة، وتحديـدًا فــي الطابـق الثانـي منـه، إلا أنَّ شـعورًا لـم يُفارقنـي طـوال فتـرة سـجني بأنـي فـي قبـو عميـق تحـت الأرض. قبـوٌ أشـبه بالعوالـم السـفلية التـي يُنــفى إليهـا المنبـوذون. هـذا مـا ألجأنـي إليـه الضيـق الممتـد فـي نفسـي!

حفّــز هــذا الشــعور بالضيــق تدهــور نظرتــي لنفســي، وظنــي أن مكانتــي التــي حاولــت منــذ صغـري إثباتهــا للعالــم قــد تراجعــتْ لنقطــة الصفــر، انصهــرتُ وســط أصحــاب الجنايــات والقتلــة.

عندمـا قُبـض علـيّ عنـد حاجـز ضهـر البيـدر،[1] تخيلـتُ نفسـي سـاقطًا فـي هـوةٍ ليـس لهـا قـرار، أوقعـتُ نفسـي بنجـاح تـام! هـوةٌ لا تجـري عليهـا قوانيـن الزمـان والمـكان، حيـث انعـدم احترامـي لأي أمـلٍ فـي كونـي إنسـانًا سـيكون لـه شـأن مـا!

كلّ مـا كنـتُ قـادرًا علـى القيـام بـه فـي السـجن هـو اسـتعادة أحـداث الماضـي، والتكهـن بـكل مـا يُحــتمل أنْ يقـع فـي مسـتقبلٍ قريـب.

---

(١) حاجز أمني مركزي بين محافظتي جبل لبنان والبقاع.

لـم أتوقـف عـن التفكيـر والقلـق فـي كل لحظـة، وانتظـرتُ مـا سـأعانيه ببقائـي هنـا... مِـن هَتْـكٍ واسـتباحةٍ واسـتغلال.

كان بإمـكان أي كلمـةٍ صغيـرة تُـقال تعريضًـا أو همسًـا فـي الأنحـاء، أو أي حـدث حتـى وإن كان لا يَمُـتُّ لـي بصلـة، أن يُفاقـم خوفـي ويحولـه إلـى هلـع واضطـراب. أمـا عـن الآخريـن، فهـم يقضـون أوقاتهـم بلعب الـورق أو القمـار، والتحـدث مـع بعضهـم. أمـا عنـي فلـم أكـن قـادرًا سـوى علـى تعزيـز قلقـي! لذلـك طـال بـي الوقـت، ومـر بطيئًـا جـدًّا أبطـأ مِـن مـروره علـى بقيـة المسـاجين.

كنـت عندمـا أتذكـر شـيئا حصـل معـي قبـل يـوم، أشـعر أنَّ أسـابيع مـرت عليـه، حتـى الفـارق بيـن الصبـاح والليـل صـار كبيـرًا جـدًّا، بسـبب كثـرة الأحـداث والأفـكار التـي تتخبـط فـي داخلـي.

عنـد خروجـي لـم أفهـم كيـف مـر علـيَّ فـي سـجني أسـابيع قليلـة فقـط؟ بينمـا شـعرتُ أنـي سُـجنتُ لأشـهرٍ وربمـا لسـنوات!

بعـد مـرور عـامٍ مـن خروجـي، لازمنـي شـعورٌ بأنـي لازلـت بينهـم، ولا يزالـون يتهامسـون عنـي ويحيكـون المؤامـرات لإيذائـي.

واليـوم رغـم مـرور ٤ سـنوات، عندمـا أشـم رائحـة عـفن أو أدخـل مكانًـا لا يدخلـه الهـواء، يعـود لـي الإحسـاس بالهلـع نفسـه، وكأنـي رجعـت وسـطهم. لدرجـة أنـي ذهبـت لطبيـب نفسـي لأتغلـب علـى تلـك الهـلاوس ولـو بالـدواء. لكـن الـدواء إذا أذهـب عنـي بعضهـا حينًـا... أتـى بهـا دفعـةً واحـدةً فـي أحاييـن أُخـر!

صـرتُ عندمـا أفكـر بالذهـاب إلـى بلدتـي أخـاف مباشـرةً مـن رؤيـة «الشـاويش»، ويسـألني لمـاذا كذبـتُ عليـه عندمـا سـألني عـن الحبـة التـي أخذتهـا فـي السـجن. أعطانـي إياهـا يومهـا «الحـاج أنـس» مقابل

سـتة ظـروف نسـكافيه كـي يلعـب القمـار بهـا، ولأسـتطيع أنـا النـوم بعـد ثـلاث ليـالِ مـن بقائـي مسـتيقظا. فضحـت نفسـي أمـام «عـلاء» قبـل يـوم مـن خروجـي لكـن دون أن أذكـر مصـدر الحبـة.

ثـم بعـد أسـبوع اتصـل بـي «الشـاويش» وسـألني. لـم تكـن الحبـوب متاحـة قانونيًـا سـوى للحـاج أنـس بسـبب مرضـه، وكانـوا يريـدون حُجَّـة كـي يتخلصـوا منـه. غالبًـا حصـل ذلـك.. لكنـي فضلـت عـدم التأكـد.

وفضلـتُ التوقـف عـن الذهـاب إلـى البلـدة. لـم أكـن مضطـرًّا لرؤيـة «العريـف» أيضـا، فلربمـا يُطالبنـي بنقـودٍ مقابـل الليالـي التـي نمتهـا عندهـم والطعـام الـذي أكلتـه علـى يـد طباخهـم. خشـيتُ حتـى مِـن مقابلـة أقـارب أمـي، ظننـتُ أنَّ مَـن كان يكرهنـي منهـم سـيؤذيني ويسـتقوي علـيّ، لا لشـيء إلا أنـي أبـدو بـلا ظَهْـرٍ يحمينـي... أو هكـذا يخيـل إلـيّ دائمـا!

لـم تتوقـف نوبـات الهلـع... ولا تـزال تزورنـي مِـن وقـت لآخـر. أنتظـر فـي كل لحظـة أمـرًا سـيئًا علـى وشـك الحـدوث. أخمـن أن يَشِـي بـي أحدهـم مـرة أخـرى وأعـود للسـجن. وأرى رجوعـي بيـن رفـاق الغرفـة مـرة أخـرى، يلـوح لـي ضيقهـم ونبذهـم، وذلـك اليـأس القابـع فـي الأرجـاء!

فاتنـي أنهـم لـم يعـودوا مكانهـم إلا فـي خيالـي. أصبحـوا فـي الخـارج الطليـق الآن. بينمـا لازلـت أحبـس نفسـي بينهـم هنـاك!